لغة الخطاب الصوفي بين القراءة والتأويل
(قراءة في بعض النماذج الشعرية)

أ/ معمري فواز
جامعة المسيلة –الجزائر

الملخص

يهدف هذا المقال إلى الكشف عن ما تحمله لغة الخطاب الصوفي من دلالات وعلامات أيقونية يمكنها المساهمة في عملية التواصل بين القارئ والنص، وكذا كشف أنماط الرمز الصوفي، وما يتولد عنه من قيم فنية، تسهم في تحديد الأسس والأبعاد الجمالية للخطاب الصوفي.

وقد كانت خطوات البحث كالآتي:

في البداية نحاول تقديم مفهوم الصوفية لغة واصطلاحا، ثم الحديث عن لغة الخطاب الصوفي، ولغة الخطاب الأدبي والفرق بينهما، لنخلص في الأخير إلى اللغة التي يستعملها ويلجأ إليها الصوفي من أجل خدمة أشعاره.

الكلمات المفتاحية :الخطاب، الرمز، إشارة، بنية، سياق.

Abstract

This article aims to reveal sense of the language of the mystic (sufi) speech and its connotations and iconic signs that can contribute to the process of communication between the reader and the text, as well as the to reveal the mystic symbol styles, and what generated about it as artistic values which contribute to determinate fundamentals and aesthetic dimensions of mystic speech.

Research steps were as follows:

At first we trying to present the Sufi concept (language and idiomatically), and then talking about the language of the mystic speech, the language of literary speech and the difference between them, to summarize in the final to the language used by the sufi and that he resorted to in order to serve his texts and poems

Key words: DISCOURS – ICON – SIGN – STRUCTURE - GONTEXTE

مقدمة:

يحتل الخطاب الصوفي مكانة في التراث العربي الاسلامي، فقد دخل مبكراً في التراث الإسلامي، وذلك بسبب تأثر العرب بالتراث اليوناني من جهة، والثقافة الفارسية من جهة أخرى، فأصبحت له سلطة معرفية قوية تعالج المشاكل الفكرية والاجتماعية، هذه السلطة التي تستمد شرعيتها من القرآن والسنة، ترتكز في ذلك على لغة تختلف عن اللغة المعروفة (لغة الفقهاء، ولغة الفلاسفة، وأصحاب المنطق)، هذه اللغة التي يتم من خلالها تحديد أبعاد ومستويات الفكر والخطاب الصوفي، وتحديد مظاهر الإبداع الجمالية التي تميزه عن غيره من الخطابات والنصوص الاخرى، بصفتها ميزة ترتبط بسلوك الصوفي.

من هنا اتخذت اللغة في الخطاب الصوفي أبعاداً ودلالات، ذات طابع خاص لا يفهمها إلا من سلك درب التصوف. فما المقصود بالصوفية ؟ وماهي لغة الخطاب الصوفي؟

أ/**مفهوم الصوفية** :

1-**لغة**:

يقول ابن خلدون في مقدمته ": قال القشيري: و لايشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولاقياس. والظاهر أنه لقب. ومن قال: اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه. قلت : والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من صوف وهم في الغالب مختصون بلبسه، لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف".[1]

2- **اصطلاحاً**:

التصوف هو التعبد والزهد في الدنيا والإقبال على العبادات واجتناب المنهيات ومجاهدة النفس على ترك ما حرم الله لمدة معينة. وهو " نزعة من النزعات الوجدانية ورغبة روحانية من مجموعة من الميولات الإنسانية تجاه حدث أو فعل أو شيء ما. ومن ثم، يمكن الحديث عن معتزلي صوفي وأشعري صوفي وفقيه صوفي ونصراني صوفي ومسيحي صوفي ....".[2]

ويذهب ابن خلدون إلى أن التصوف " هو العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة. وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة".[3]

يبدو أن التصوف هو مجاهدة النفس على ترك ملذات الحياة الدنيا والسمو بها إلى أعلى مراتب المعرفة ، ولا يتم هذا الوصول إلا بالانتقال من الظاهر إلى الباطن، فتظهر بذلك تجلياته علي النفس الراغبة، والساعية وراء الكشف والبحث عن الباطن الذي ينتقل من خلاله إلى معرفة السر الذي انبثقت منه الحياة، وكذا الانتقال " بالنفس البشرية إلى الكمال، والمعرفة من خلال التضحية والإيثار كمبادئ أخلاقية يقوم على تهذيب الروح الإنسانية، ويجعلها تتصف بالسمو، فيكون بذلك تأديباً و تهذيباً وتذويباً فالتأديب محل الاستتار وهو للعلوم، والتهذيب للخواص وهو التجلي، والتذويب للأولياء وهو المشاهدة".[4]

ب/ لغة الخطاب الصوفي ولغة الخطاب الأدبي :

تختلف لغة الخطاب الصوفي عن لغة الخطاب الأدبي، ويرجع ذلك إلي ما يستعمله الصوفي من رموز وإشارات مجازية، تجعل لغته خاصة وليست عامة، تتميز بالذاتية" تعكس إحساس صاحبها بما يراه ويسمعه، ويكابده من أحوال، إنها تعبر عن عالم مدهش، تعجز عنه اللغة العادية، فاللغة العادية لغة المعلوم أما اللغة الصوفية، فهي لغة المجهول تتجاوز المألوف إلى المدهش، لهذا يلجأ الصوفي إلى مفردات تعكس رؤيته"[5]. فكانت تلك اللغة لغة إبداعية تقوم على خلق معاني جديدة، يكون فيها الإيحاء والرمز أكثر استعمالاً من اللغة العادية. فهي تتجاوز" بعدها التعبيري إلى السلطة التأسيسية، بحيث تأخذ المسميات معناها من سياقات الكلمة ووضعها الهندسي في القصيدة"[6]. فالصوفي ينطلق من المعنى اللغوي إلى أبعاد ودلالات تفوق تلك المعنى الظاهري. لذا فاللغة عندهم تتخذ شكل التأويل للكشف عن ما يحمله النص من رموز وشفرات باطنية، فيصبح " التأويل فعلا شاملا يستعين بمختلف المعطيات اللغوية والفكرية للكشف عن دلالة النص "[7]، فالتأويل يلعب دوراً كبيراً في فهم وكشف اللغة الصوفية التي تعتمد على الرمز والإشارة ،" وهو ما ينطبق على

القراءة الصوفية التي تتجسد من خلال صرف الظاهر واعتماد الباطن لفهم النصوص وفق دلالتها الأصلية" [8]، لهذا حاول المتصوفة خلق لغة خاصة بهم تعمل على خلق مصطلحات ومفردات جديدة تعبر عن تجربتهم الخاصة اتجاه هذا العالم، وفق الحالات التي يمر بها الصوفي، والرؤية التي تتكون لديه، والمقامات التي يحل بها. فأصبحت هذه اللغة خاصة لا يفهمها إلا من خاض التجربة الصوفية وعاشها. فهي تعمل على اختزال المرئي من جهة، والبحث والكشف عن اللامرئي من جهة أخرى. وذلك كله وفق جلية الظاهر والباطن.

–لغة الخطاب الصوفي:

1–الرمز والإشارة:

لقد قام المتصوفة بتوظيف الرمز والإشارة للتعبير والتلميح في جميع نصوصهم وذلك من أجل الإخفاء والغموض، والانفراد بها، فأصبحت تلك الرموز خاصة بالصوفية وليست عامة وفي هذا يقول القشيري: " أعلم أن لكل طائفة من العلماء ألفاظاً يستعملونها وقد انفردوا بها عمن سواهم ،كما تواطئوا عليها لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على المتخاطبين بها أو الوقوف على معانيها بإطلاقها، وهم يستعملون ألفاظاً فيما بينهم، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم والستر على من باينهم في طريقتهم لتكون ألفاظ مشتبهة على الأجانب"[9]. فكانت هذه الرموز تتخذ طابع الإيحاء بدل التصريح المباشر للكلام، تختزن في طياتها معاني باطنية، لا يتم الكشف عنها إلا بالمكابدة والمجاهدة. وفي هذا المعنى يقول الطوسي: " الرمز هو معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلا أهله".[10]وقد عبر عنه ابن عربي بقوله:

ألا إن الرموز دليل صدق .... على المعنى المغيب في الفؤاد.[11]

لقد جعل ابن عربي من الرموز لغة ودليلاً يعبر بها عن معاني ومقاصد كامنة في الفؤاد. فكانت لغة الإشارة لديه هي الوسيلة التي يعبر بها عن ما يكمن في نفسه. فالرمز هو "اللغة التي تبدأ حين تنتهي لغة القصيدة، أو هي القصيدة التي تتكون في وعيك بعد قراءة القصيدة، إنه البرق الذي يتيح للوعي أن يستشف عالما لا حدود له".[12]

ويقول ايضاً:

فاصرف الخاطر عن ظاهرها... وأطلب الباطن حتى تعلما.[13]

يبدو لنا من خلال هذه الكلمات، والاشارات التي يستعملها الصوفي في نصه، أنه يستعمل لغة مخالفة، تقوم علي الباطن لا الظاهر، تؤدي إلى تغيير عملية التواصل بين المرسل، والمرسل إليه، فتصبح هذه اللغة خاصة يختص بها المتصوفة، ولا يفهمها إلا من كان متصوفاً سلك درب ومذهب الصوفية، يقول ابن الفارض:

غني التصريح للمتعنت ..... وعني بالتلويح يفهم ذائـق

بها لم يبح من لم يبح دمه وفي .... الإشارة معنى ما العبارة حدت[14].

إذن تلك اللغة يعبر بها عن طريق الرمز" تعبيراً غير مباشر عن النواحي المستترة التي تعجز اللغة عن أدائها" [15].

من هنا كانت عملية التواصل في الخطاب الصوفي تختلف عن عملية التواصل في الخطاب الأدبي المألوف. فلا يتم الكشف عن تلك الدوال والرموز إلا بحضور القارئ، الذي يتسلح بأدوات القراءة، التي تمكنه من فهم وتأويل النص، ويكون ذلك من خلال جانبين:

1- معرفة الجانب السطحي (الخارجي).

2- معرفة الجانب الداخلي للنص.

لذلك كان لابد من وجود القارئ والنص، لأن القراءة لا تتم إلا بوجودهما معاً، "وهذا يعني أن العلاقة بين القارئ والنص لا تسير في اتجاه واحد فقط، وإنما هي علاقة تسير في اتجاهين متبادلين (من القارئ إلى النص) ومن (النص إلى القارئ)".[16]

فما يلاحظ على الشعر الصوفي أن الشاعر يوظف " اللغة توظيفاً رمزياً استعمل فيه الصورة لكشف عوالمه، وهي صور يتعالق فيها الروحي والمادي للتعبير عن عالم غريب مدهش ورؤية متميزة فهي لغة الجسد المعنوي والتجرد الحسي، تربط بين عناصر الإنسان وعناصر الكون، فلا حدود بين الأشياء والمعاني واللغة "[17]. فالقارئ للخطاب الصوفي لا يقف عند حدود القراءة السطحية فقط، بل عليه الغوص في كنف دلالات تلك الرموز والإشارات للكشف عن المجهول منها، وما تحمله من غموض ورؤى صوفية.

يتضح لنا أن الصوفية هي التجربة الروحانية التي يعيشها الصوفي، يتم من خلالها الوصال والانتقال من عالم الحس والظاهر المادي المقترن بالدنيا إلى عالم التجريد، ولا يكون ذلك إلا بمعرفة المفاهيم والرموز الصوفية، التي تساعده في المعرفة و الوصول إلى الجانب الروحاني.

2- الكلمة في الخطاب الصوفي بين الظاهر والباطن:

إن الكلمات في الخطاب الصوفي تتجاوز ظاهر المعنى، فهي تحمل في باطنها معنى ومدلولاً آخر فكلمة الخمرة مثلاً في النص الادبي ليست هي الخمرة التي يقصدها الشاعر الصوفي، وهي تعد من الرموز الأساسية، التي يهتم بها المتصوفة، فهم يرمزون بها إلى معاني الحب والفناء والسمو والارتقاء بالروح، بمشاهدة الجمال المطلق ومنزلة الأحوال والتجارب الذاتية العالية.

ولتوضيح ذلك نذكر هذه الأمثلة:

يقول أبو نواس:

ساع بكأس إلى ناش على طرب .... كلاهما عجب في منظر عجب.[18]

فالخمرة في هذا البيت تحمل المعاني الآتية:

الخمرة ← السكر، الخبث، الرجس

لكن إذا ذهبنا إلى النص الصوفي، فهي تحمل مدلولات ورموز أخرى.

يقول ابن الفارض:

لها البدر كأس وهي شمس يديرها .... هلال وكم يبدو إذا مزجت نجم.[19]

ويقول محمد عثمان عبده البرهاني:

من يجرع الخمر المعتق سرها ... حتى الشمالة ما عليه جناح.[20]

فكلمة الخمرة في هذا المقام الصوفي يشار بها إلى معاني أخرى هي:

الخمرة ← الصفاء، الاتحاد، الامتزاج

لقد استعمل الصوفي لفظتي السكر، والشراب بدل الخمرة (السكرالخمرة، الشراب)، وهي في ذلك تستعمل في مقصدٍ واحد هو هيام القلب ، والوجدان والسمو بالروح إلى الطبقات العليا. لذلك كانت لفظة الخمرة في نظر الصوفية خاصة بهم، وليست هي السكر وذهاب العقل كما هو معرف، بل هي عندهم التشوق، والمحبة إلى الله .

ومن الرموز التي يكثر استعمالها في الشعر الصوفي كذلك كلمة الطلل.

يقول ابن عربي:

كل ما أذكره من طلل.... أو ربوع أو مغان كلما

وكذا إن ها أو قلت ما... وألا أن جاء فيه أو أما.[20]

ويقول أيضا:

يا طللا عند الأثيل دارسا.... لا عبث فيه خردا أو انسا

بالأمس كان مؤنساً وضاحكاً... واليوم أضحى موحشاً وعابساً.[22]

يبدو لنا من خلال ظاهر هذه الشواهد أن ابن عربي نهج درب الشعراء القدامى في البكاء على الاطلال." فالوقوف على الأطلال الدارسة والبكاء على الحبيب المغادر ومناجاة الديار، وما تثيره في النفس من حزن وتفجع ومرارة، وتشبيه الخدود بحمرة الورد، ليست سوى صورة بسيطة متداولة كثيراً على ألسنة الشعراء القدامى، ويلوح من ظاهر النص أن الشاعر يبدو مقلداً مستسلماً لرحمة الذاكرة، أما باطن الصورة، فهو منقطع الجذور عن ظاهره ، فالطلول أثر منازل الأسماء الإلهية بقلوب العارفين، والدراسات يقصد بها المتغيرة من حال إلى حال أخرى، والأحبة هي الاسماء الإلهية والديار إشارة إلى المقامات والحمرة هي مقام الحياء".[23]

إذن نقول أن الطلل في شعر ابن عربي لم يقصد به الديار والاماكن التي كانت يبكيها الشعراء في العصر الجاهلي، فالطلل هنا هو ذكر المقامات، والمتمثلة في المنازل التي يسلكها الصوفي للوصول إلى الروحانية بعد مجاهدة النفس وتزكيتها، فتخرج الكلمة (الاطلال) بذلك من مدلولها الحسي إلى مدلولها المعنوي، أي من الظاهر إلى الباطن الذي ينشده الصوفية.

وما يمكن الإشارة إليه في هذا المقام هو أن الكلمات والألفاظ الصوفية، لانستطيع فهمها ولا استيعابها إلا عن طريق الذوق والكشف والممارسة الروحانية، لذلك كان الخطاب الصوفي خاصاً بفئة معينة من الناس، تعتمد على العرفان والقلب والحدس. "وبهذا تصبح الكلمة إشارة لا تفهم

على ظاهرها أو معناها المباشر، بل يجب البحث عن المعنى العميق المستتر خلف الدوال"[24]. فالرمز في الشعر الصوفي "قد ينبثق من المجاز اللغوي نفسه حين يضغط الشاعر على بعض الألفاظ في القصيدة ضغطا مركزا متجاوزا كثيرا حد الإشارة إلى المعنى العام القريب والمألوف في القصيدة، بحيث يوقظ في النفس معانيه (الماورائية) التي لا بست ميلاده لأول مرة، واقترنت بالتفكير الأسطوري الديني لمخترع اللغة القديمة، الذي يرى في كل شيء روحا مؤثرة فاعلة تتحرك، وترتبط بقوى الخير، والشر بشكل حاسم".[25]

كما نجد كذلك ما يسمى بظاهرة الاغتراب والتي هي حال من أحوال المتصوفة، يقول الجنيد في الغربة:

تغرب أمري عند كل غريب فصرت غريبا عند كل عجيب

وذاك، لأن العارفين عرفتهم على طبقات في الهوى ورتوب.[26]

لقد استعمل " الجنيد " لفظة الغربة في هذا البيت الشعري للدلالة والإشارة إلى الحق وليس البعد عن الوطن والهجرة، كما هو معروف في الشعر الجاهلي.

3- استعمال المجاز:

لقد استعمل الصوفي في شعره المجاز بشكل كبير، وخاصة منه الاستعارة التي تهيمن على جل النصوص الصوفية، وذلك راجع لطبيعة وخاصية النص الصوفي؛ " فهي تمثل الوسيلة الأكثر طواعية للتعبير عن الحالات الجديدة التي ترتكز إلى الوحدة الوجودية، فبها يتم التعبير عن التداخل الوجودي بين مفردات الكون (مكنية وتصريحية) وبها ينسجم النص، ويتم إدخال عناصر جديدة إليه، وبها يتم التعبير عن الخلق الجديد الذي يقترحه خيال الصوفي "[27]. فأغلب مفرداته وألفاظه مستعارة من المعجم الخمري ، أو المعجم العاطفي ، تعبر عن مقاصد ومعاني صوفية، " لا تكشف عن هويتها مباشرة بل تحتجب خلف الأستار، ولا تبدو إلا في الصورة المجازية التي تختفي وراءها مدلولات متعددة، فالأشياء تتجرد من حالتها، والألفاظ تتجرد من لحائها، لتكتسي دلالات جديدة مشرقة".[28]

إذن يعتبر المجاز وسيلة بلاغية يمتلكها الصوفي تعمل على خلق مقاصد، ومعاني جديدة تخدم غرض النص الصوفي؛ "ذلك أنه في ذاته مجال لصراع المتناقضات الدلالية، وهكذا لا يولد المجاز إلا مزيدا من الأسئلة".[30]

4- ذوقية المعاني:

يظهر ذلك في محاولتهم التخلص من اللغة العادية، و إصباغها بالذوق أي ذوقية المعاني، وإيجاد لغة خاصة بهم تميزهم عن غيرهم، وتتسم بالذوق؛ والذوق هنا لا يعني به الذوق الادبي المتعارف عليه في المجال النقدي، بل يقصد به التجلي والعلم الصوفي.

وقد اتخذ الذوق عند الصوفية ثلاثة أشكال ومظاهر هي:

1- الذوق النظري

2- الذوق الحسي

3- الذوق المعنوي

من هنا أتخذ التعبير عندهم طابع الوضوح والكشف، فمن خلال هذه الاذواق (النظري – الحسي – المعنوي) يصل الصوفي إلى مراتب العلم والتجلي. " بينما تستتر في الاتجاه الاخر، وتتحل في نسيج العمل وتتخذ طابع الغموض النسبي الذي لا يفترض العلاقة مع المتلقى".[31]

5- توظيف المصطلحات اللغوية لأغراض صوفية:

لقد وظف الصوفي الكثير من المصطلحات اللغوية لخدمة أغراضه، وتجربته الخاصة. فالمتأمل مثلاً في لفظتي- الروح و النفس- في المعنى اللغوي يجد أنهما بمعنى واحد بينما في الخطاب الصوفي لهما معنى مغاير؛ فالصوفي يسعى إلى التخلص من النفس، ومن قيودهافيكون السبيل في ذلك " بقتل النفس وقمع لذاتها وشهواتها؛ أي القضاء على مقتضيات النفس البدنية؛لأن في هذا القتل حياة الروح وخلاصها. فالموت عندهم، هو الموت الذي يكون بالتوبة عن الاستجابة لأهوائها".[32]

ومن الاستعمالات اللغوية التي استعملها المتصوفة قصد التلميح والترميز قول الشاعر:

أنا من قبل قبل وجودى .... كنت غوثا في نطفة الآباء

أنا بحر بلا قرار وبر .... شرب العارفون من بعض مائى.[33]

إن ما يلاحظ هذه الابيات أن الشاعر استعمل (أنا)، ضمير المتكلم " لينطلق الخطاب منه ويرتكز عليه ، وهو يتكرر مرتين في هذه الأبيات، ويتم تقديمه في كل مرة بمنظور ما، يكشف عن بعض خصائصه".[34]

لكن إذا تتبعنا محاور انكشاف الذات " فسنجد أن المحور الأول يكشف عن الوجود اللامكاني لها من حيث العلم بها قبل تشخيصها وتعينها، ويشير تكرار كلمة (قبل) إلى كون حقيقتها سابقة وأزلية، وتتجلى في المحور الثاني جمعية الذات المتكثرة، والمتوحدة في كثرتها، ذلك أن الكون ينطوي فيها ويرتد إليها بكل ماله من أقسام وتفريعات".[35]

كما نجدهم قاموا بتوظيف عناصر الطبيعة لخدمة أغراضهم الصوفية. يقول ابن عربي:

رعى الله طيراً على بانة ... قد أفصح لي عن صحيح الخبر
بأن الأحبة شدوا على .... رواحلهم ثم راحوا سحر
فسرت وفي القلب من أجلهم ... جحيم لبينهم تستعر
أسابقهم في ظلال الدجى ... أنادي بهم ثم أقفو الأثر
وما لي دليل على إثرهم ... سوى نفس من هواهم عطر.[36]

وظف ابن عربي عناصر الطبيعة " ليصوغ صوراً نفسية ذات صلة عميقة بهاجسه الصوفي الباطني، ومن خلال تلك الصور وظلالها يؤسس الشاعر فلسفته للعالم التي يبث من خلالها فهماً متسامياً ينطوي على أبعاد ثرة ومفهومات صوفية تقوم على الرمز والإيحاء".[37]

فتلك الرموز والإشارات ماهي إلا " رموز واصطلاحات خاصة، وهي على كل حال رموز متجذرة في التراث الصوفي، بحكم تداولها فيما بينهم، وبحكم نقل تجاربهم. ومع ذلك فإنها ما تزال تدور في كلامهم وأشعارهم، وإن كان استخدامها قد بلغ من قبل حالة النضج والاكتمال. فهي تشكل معلماً هاماً ولبنة مركزية في التعبير الصوفي، ذلك أن الخبرة الصوفية يصعب منحها شكلا من التوسل باللغة الاعتيادية، لهذا السبب نراهم يلجؤون إلى إقامة أبنية رمزية، يشيرون من خلالها إلى ما ينالونه من العلوم".[38]

إذن الصوفي يقوم بتحويل الألفاظ والجمل إلى أدوات يعبر بها عن التجربة الروحية، وهو على هذا الأساس يتميز بمرجعيات متنوعة، لا تخضع للجانب اللغوي فحسب، بل إلى مجموعة من العوامل الظاهرية والباطنية، فيعطي للحياة رمزاً، ومن الإشارات أساليب توافق أغراضه وتلائم طبائعه العر فانية، فتثير في النفس الاحساس والشعور بالوجدان والروحانية، مما يعطي الذوق الإبداعي والجمالي. لذلك كانت لغة الخطاب الصوفي تعكس لنا بصور رمزية إشارية ما يحمله الصوفي ويرمي إليه من معاني باطنية، تسمو به نحو العلى ومكارم الأخلاق متجاوزاً الظاهر الكوني للولوج في عالم الباطن.

وهذا كله من أجل تحقيق، وتجسيد مبدأ الخلاص " الذي هو عودة إلى الأصل، سبيلها الانعتاق من ظلمات المادة والانتهاء من الوجود ضمن شروط هذا العالم ومنطقه، ليعود الصوفي إلى الحال المثال"[39]. فكان لابد علي المتلقي (القارئ) التسلح بالقراءة التأويلية " التي تقوم على صرف الظاهر إلى الباطن واعتماد مبادئ الحدس، والرؤية التأملية في فهم النصوص الصوفية، والكشف عن دلالاتها المختزنة، وهنا يصبح للقارئ وجود إيجابي وفعال، حيث إنه لم يعد مجرد أداة استقبال سلبية للمعاني والأفكار التي أرادها المؤلف بل هو مبدع للمعاني والأفكار".[40]

وما يمكن قوله في هذا الباب أن لغة الخطاب الصوفي تجربة صوفية تنطلق من الداخل إلى الخارج تعكس رؤية الصوفي ومعتقداته " وهذا يعني إمكانية تعدد القراءة في هذه اللغة إنها آفاق مفتوح على المطلق واللانهاية ومعراج يسمو بنا إلى الرؤى والكشوف العلوية، ولذلك كان التصوف فتحا جديدا في مملكة اللغة إنه السكر والحب والعروج في سماء الفكر الإشراقي لتحقيق التواصل المفقود مع العالم والإنسان".[41]

وخلاصة القول نجد أن الصوفي وظف الرمز والإشارة من أجل خدمة نصوصه وأشعاره، فكانت تلك الرموز والإشارات الوسيلة واللغة التي يلجأ إليها الصوفي في التعبير عن ما يختلج في نفسه وإحساسه بأسلوب ذاتي بعيد عن الواقع أي ضمن عالمه الخاص به، والانتقال بالنص الصوفي من اللغة العادية إلي اللغة الغامضة والمجازية، لتصبح بذلك لغة خاصة برؤيته وتجربته الروحانية، فأكسب

بذلك الخطاب الصوفي قيماً جمالية وفنية عديدة استطاع الشاعر بها أن يرسم لوحة رمزية مجازية تكشف لنا عن هوية الخطاب الصوفي، وما يحمله من إشارات وشفرات، فأصبحت لغتهم تزخر بالمعاني والدلالات الكامنة غير المكشوفة، تحتاج إلى عملية القراءة والتأويل، باعتبارهما عنصرين أساسين في الفهم والتأويل، هذه العملية التي لا تتم إلا بوجود القارئ (المتلقي) والنص.

الهوامش والإحالات:

1- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009 دط، ص490.
2- أحمد أمين: ظهر الإسلام، المجلد 2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط5، ص149.
3- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: المرجع نفسه، ص490.
4- محمد بن بريكة: التصوف الاسلامي من الرمز إلى العرفان، دار المتون للنشر والطباعة والتوزيع، ط1، 2006، ص52.
5- فاتح علاق: في تحليل الخطاب الشعري، دار التنوير، للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2008، ص45
6-مصطفى دحية: اصطلاح الوهم، منشورات الجمعية الوطنية للمبدعين، 1993، ص9
7-عبد الحميد، هيمة: الخطاب الصوفي وآليات التحويل قراءة في الشعر المغربي المعاصر، الجزائر، 2008،ص 156.
8- عبد الحميد، هيمة: الخطاب الصوفي وآليات التحويل قراءة في الشعر المغربي المعاصر، المرجع نفسه، ص 156.
9- عبد الكريم القشيري: الرسالة القشيرية في علم التصوف، ص53.
10- موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، رفيق العجم مكتبة لبنان، ناشرون، ط1، 1999، ص411.
11- ابن عربي: الفتوحات المكية، تح، الدكتور عثمان يحي، مصر،1974، ج3، ص196.
12- أدونيس: زمن الشعر، دار العودة، بيروت، 1972، ص160.
13- ابن عربي: ترجمان الأشواق، دار بيروت، للطباعة والنشر، بيروت،1987، ص11.
14-عمر بن الفارض، الديوان، (شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين)، بيروت : دار الكتب العلمية– ط 2- ص 55، 2002.
15- عبد الحميد، هيمة: المرجع نفسه، ص، 193.
16- عبد الحميد، هيمة: المرجع نفسه، ص، 157.
17- فاتح علاق: في تحليل الخطاب الشعري، المرجع نفسه، ص 58.
18- أبو نواس: الدوان، (حققه وشرحه، وفهرسه، سليم خليل قهواهجي)، دار الجبل، بيروت، دط، 2003، ص104.
19- ابن الفارض عمر بن الحسين: الديوان، شرح وتقديم مهد محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ج2، ص172.

20-دوان شرب الوصل، الشاذلية، دط، ص29.
21- ابن عربي: ترجمان الأشواق، المرجع نفسه، 10.
22- ابن عربي: ترجمان الأشواق، المرجع نفسه، 75،76.
23- قدور رحماني: ابن عربي وديوانه ترجمان الأشواق، الناشر المتصدر للترقية والعلمية والإعلامية، وزارة الثقافة، الجزائر،2014، ص، 228
24- عبد الحميد، هيمة: المرجع نفسه، ص، 152
25- عثمان حشلاف، الرمز والدلالة في شعر المغرب العربي المعاصر، منشورات التبيين، الجاحظية، الجزائر، 2000،ص13.
26- إبراهيم محمد منصور، الشعر والتصوف (الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر)، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1999، ص،310.
27- فيصل أصلان خطاب التصوف (أطروحة دكتوراه الدولة مخطوط)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، ج2، 1997، ص، 481
28- عبد الحميد، هيمة: المرجع نفسه، ص، 167
29- عبد الحميد، هيمة: المرجع نفسه، ص، 167
30- أدونيس، الصوفية والسوريالية، دار الساقي، بيروت، ط2، 1995، ص، 144
31- الشعر الصوفي: مفهوم الانفصال والتوحد، الناشر، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، ص، 72
32- الشعر الصوفي: مفهوم الانفصال والتوحد، المرجع نفسه، ص، 98
33- الجوهر السنية والكرامات الاحمدية " مخطوط" ورقة 58: نقلاً عن سلسة دراسات أدبية: الشعر الصوفي، مفهوم الانفصال والتوحد، ص، 115
34- الشعر الصوفي: مفهوم الانفصال والتوحد، المرجع نفسه، ص، 116
35- الشعر الصوفي: مفهوم الانفصال والتوحد، المرجع نفسه، ص،116
36-ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص157،156
37- قدور رحماني: ابن عربي وديوانه ترجمان الأشواق، ص، 261
38-الشعر الصوفي: مفهوم الانفصال والتوحد، المرجع نفسه، ص، 117
39-الشعر الصوفي: مفهوم الانفصال والتوحد، المرجع نفسه، ص، 109
40- عبد الحميد، هيمة: المرجع نفسه، ص، 200
41- عبد الحميد، هيمة: المرجع نفسه، ص، 382